البوسنة ..
أرض تجري من تحتها الأنهار

تختصر شاشة الطائرة أرجاء الأرض لتجعل المسافة بين نقطتي المغادرة والوصول أقرب ما يكون.. في سرعة عجيبة وسباق هائل بين المكان والأزمنة المتقاربة في شكلها الخرائطي وبين الحقيقة التي لا يصدقها من لم يلحق بهذا الزمن.

بدت سراييفو بقعة وادعة بين أحضان إيطاليا وتركيا والجبل الأسود.. لم نعلم بها إلا عندما أرادت أن تستقل كدولة عن الكيان الأكبر يوغسلافيا... كنت وقتها في العقد الثالث.. وكانت أناشيد سراييفو تناديكم تؤجج المشاعر وتبعث في النفس حمية دينية / أخلاقية لإنقاذ البشر الذين يبادون هناك.. دون أدنى ذنب.

سعيد بن خلفان النعماني

وتمضي الأيام وتلتئم الجروح وتقوم سراييفو من جديد بجناحها المكسور لتستقطب العالم ليقف شاهدا على ما جرى من أحداث.. عندما كنت أودع أسرتي ميمما شطر سراييفو في سياحتي التاريخية والتراثية كانت الأعين مستغربة من هكذا اختيار، كأنما الحرب ما زالت قائمة والجثث تملأ الشوارع والازقة.. فلماذا سراييفو.. ولماذا لا اذهب إلى مكان آخر.. فالساعات الست التي تفصلنا طيرانا عنها يمكن أن تغير المسار إلى وجهة أخرى أكثر أمانا؟!.

قلت لهم ساتصل بكم حال وصولي سراييفو وسوف تدهشون من جمالها وطبيعتها الساحرة.. فأنتم على موعد لصورة جميلة تختصر تاريخ سراييفووما حولها من الأمكنة.

هدوء البلاد.. وروعة الاستقبال

عندما وطأت عجلات الطائرة مطار سراييفو، تخيلت عالما من البشر يصطفون لأخذ التأشيرات وإنهاء إجراءات الولوج إلى هذا الكون الجديد الذي نكتشف عالمه بعد قليل، لم تهبط في ذلك سوى طائرتنا، وختم الموظف المختص على جوازي في أقل من دقيقة، لم يطلب أية بيانات أخرى ولم يسألني عن وجهتي ومكان إقامتي وغيرها من الأسئلة التي تعودنا عليها في أغلب مطارات العالم، كانت إجراءات بسيطة للغاية واكتملت المجموعة التي برفقتها خلال دقائق لنجد مندوب الشركة المضيفة في استقبالنا، لنبدأ رحلات الاستكشاف في اليوم التالي.

مقابر الشهداء

كان ملفتا للنظر الواحات المستطيلة لآلاف المقابر المحمية بالجبال لالتصاقها بها وباشجار المطاط المعمرة من ناحية الطرق الملتوية على قرى جبلية متناثرة، شواهد القبور البيضاء التي تتصدرها كلمة الفاتحة بالأحرف العربية واسم المتوفى وتاريخي ميلاده ووفاته. تلك المقابر الجماعية كانت السمة الواضحة، لاسيما في العاصمة البوسنية سراييفو، وكذلك في مدن ترافنيك وبيهاتش وموستار، بالإضافة إلى مقابر ذات شواهد سوداء تشير إلى المسيحيين من الكاثوليك وغيرهم.

في متحف سراييفو الذي يقع قرب المطار، علقت لوحة طويلة تحمل أسماء شهداء المعارك الطاحنة التي خلفت آلاف القتلى، لم يكن من الضروري الولوج إلى المتحف المصغر لتلك الأحداث.. فأزقّة البلاد والمباني تروي كل شيء، رممت أكثرها واعيدت لها الحياة بعد موت محقق.

في أعلى تلة تطل على مدينة سراييفو، جلس الأهالي والسياح لاحتساء الشاي والقهوة.. ونظرهم صوب التواءات الشارع الذي يحتوي المقابر من كل مكان، وواحة خضراء متساقطة تحتضن مئات المنازل ذات القبعات القرميدية الحمراء، وعلى اليسار شلالات شديدة الغزارة تلتقي فيها أكثر من ثلاثة أنهار في آن واحد، ولكن بألوان مختلفة تبثها انعكاسات أضواء خافتة لبقايا شمس لم تغب حتى لحظة ارتحالنا عن المكان.

تجري من تحتها الأنهار

لم نر منبعا لأي نهر، ذلك السؤال الذي كنت أطرحه بين حين وآخر على مرافقي السياحي، يحاول الإجابة ولكن لا تسعفه المصطلحات العربية حتى يشكلها في جمل مفيدة، فلغته العربية اكتسبها مؤخرا، يحمل ثقافتين في أن واحد، أخذ من أمه البوسنية ثقافة البلد والعرق المسلم المحافظ، ومن والده السوري الثقافة والنخوة العربية والأخلاق الإسلامية الفاضلة، عندما يجاوبني أجد رده عبارة عن استفهام أكثر من كونه إجابة، فأدخل في الجوجل لأجد الإجابات التي ابحث عنها.

جريان الأنهار يرافق السيارات والشاحنات الكبيرة، وبعض منازل المزارعين المتوزعةُ في شتى المنحدرات والواحات الطويلة مدّ البصر، وتلوح من بعيد مآذن المسجد والكنائس، بل ونجدها في الاسواق والمتنزهات والطرقات الرئيسة والفرعية في ثنائية عجيبة لكثرتها وتقاربها.

استثمرت الدولة – ربما – كل قطرة ماء تجري في مشاريع سياحية منتجة، جميع المطاعم والمقاهي التي وقفنا عندها للغداء أو العشاء كانت قبالة نبع مائي او عليه، كما هوالحال في بيهاتش حيث كان الفندق يعلو نهرا شديد الجريان يصل بخار مائه الى الادوار العليا من الفندق.

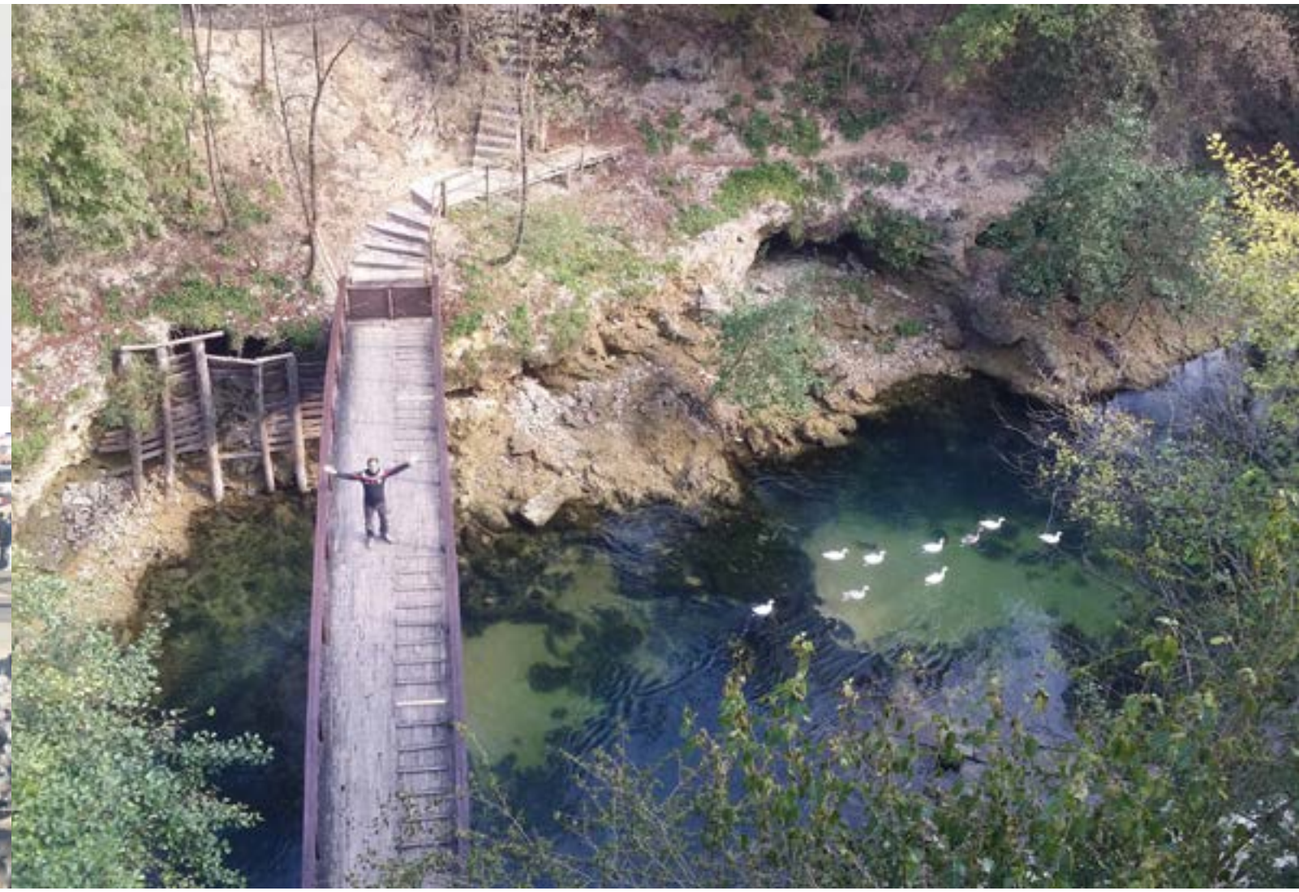

موستار.. مدينة الجسر

مدينة موستار أو كما تسمى بمدينة الجسر، أكبر مركز حضاري في منطقة الهرسك، وخامس أكبر مدينة في البوسنة والهرسك، ويعد نهر بونا أحد أهم معالمها وهو الذي تتفجر مياهه – باردة صيفا وحارة شتاء – من تحت الأرض، كما ينال جسر ستاري موست «أو الجسر القديم» التاريخي اهتمام السياح من كل حدب و صوب تضم مدينة موستار العديد من المساجد الأثرية والأحياء القديمة، وغيرها من الآثار الإسلامية العريقة.

وهناك أيضا الجسر القديم، جسر قوسي أثري، يقع على نهر نرتفا في مدينة موستار في البوسنة والهرسك. يعود بناؤه إلى القرن السادس عشر وتحديدا عام ١٥٦٦م، ويُعدّ من أعظم الجسور التي خلفتها الدولة العثمانية في منطقة البلقان. قام بتصميمه المعمار «خير الدين»، أحد تلامذة المعمار سنان آغا، أدرجته منظمة اليونسكو الجسر مؤخرا كموقع للتراث العالمي.

وجولة في المدن البوسنية نكتشف كم هي جنّات على الأرض، نعبر إلى كرافيستا، مدينة على بعد ٤٠ كم من مدينة موستار، وتحتوي المدينة على شلالات وبحيرات تُعد من عجائب الدنيا الطبيعية مما جعل المدينة تكون واحدة من أجمل الأماكن في منطقة الهرسك، حيث تتساقط مياه شلالات كرافيتسا من ارتفاع ٣٠ مترا مكونة مسبح طبيعي بعرض ١٥٠ مترا.

أما بوتشيتيل فهي مدينة تاريخية صغيرة والأحياء السكنية القديمة التي تقع أسفل المنحدر فوق نهر نيريتفا يغلب عليها طابع القلاع من العصور الوسطى، وإلى جانب العمارة الشرقية المذهلة، والعثمانية الخاصة والمثيرة للاهتمام فهي معروفة بوصفها البلد المضيف للفنون البصرية مع تاريخ تقليدي يُعد من الأطول في جنوب شرق أوروبا. كما أن مناخها المتوسطي يعطي لهذه المدينة رونقاً خاصاً.

بلاجاي، مدينة تقع بالقرب من موستار وكانت مخصصة لإستراحة الملوك والأمراء في عهد الحكم العثماني والإمبراطورية النمساوية المجرية ومنها ينبع نهر بونا الذي يعد من أجمل الأنهار في أوروبا ويصل طوله إلى ٩ كم، ونزور كونيتس، مدينة تقع في أقصى شمال الهرسك على نهر نيريتفا، بين سراييفو وموستار، وتعتبر من أقدم المدن في البوسنة والهرسك، ويعتقد أن المنطقة المحيطة بها عمرها ٤٠٠٠ سنة، وسكنتها قبائل الإلارية منذ ٢٠٠٠ سنة، وفيها جسر حجري أنشئ سنة ١٦٨٢، وتم تجديده حديثا، وفيها أيضا «مدينة تيتو السرية تحت الأرض» وهي عبارة عن مخبأ على عمق ٢٨٠ مترا تحت الأرض في بطن جبل برين عند كونيتس.

أما مدينة يبالنيستا فتقع في شمال الهرسك على نهر نريتفا، وفيها واحدة من أجمل وأكبر البحيرات في البوسنة والهرسك وهي بحيرة يبلانيتشكا التي يبلغ مساحتها ١٣ كم٢، ويبلغ أكبر عمق لها من ٧٠ – ٨٠ مترا، ويروى أنه في الحرب العالمية الثانية وقعت معركة تعد من أكبر المعارك في البلقان بين الجيش الألماني واليوغسلافي في مدينة يبلانيتسا، حيث حاول الألمان عبور نهر نريتفا وقتل تيتو الذي قام من جهته بقصف الجسر الذي يقع فوق نهر نريتفا مما منع الألمان من عبور النهر وأدى إلى انتصار تيتو في المعركة، حيث يزال الجسر إلى يومنا هذا على نفس هيأته ويعد واحد من أشهر المعالم السياحية في البوسنة والهرسك.

من مدن البوسنة الجميلة مدينة يايتسا أو مدينة الملوك، تقع هذه المدينة وسط البوسنة والهرسك، على بعد ١٦٠ كيلو مترا شمال غرب سراييفو ويمر من خلالها نهرا بليفا وفرباس، ويكمن الثراء التاريخي والثقافي لمدينة يايتسا من خلال وجود ٢٤ معلما وطنيا منها حصن (بوريتش) والكنيسة الأرثوذكسية (سانت جون) وكنيسة (سيفرت ماريا) التي تضم برج الجرس، ومسجد النساء ومتحف (أفنوج) ومسجد (أسما سولطانية)، والمقبرة الملكية (كراييف جروب)، وغيرها من المعالم التاريخية.

وتشتهر مدينة ترافنك على بعد ٩٠ كم من سراييفو، وتشتهر بصناعة الجبن الذي يعد من أفضل أنواع الجبن حول العالم، ولا تزدحم الحقب والأحداث التاريخية في مدينة كما تزدحم في ترافنك، حيث تنتشر فيها الآثار البوغميلية، والرومانية، والمملكة البوسنية، والآثار العثمانية، وتشهد المدينة الاحتفالية السنوية بذكرى رحيل الكاتب البوسني إيفو أندريتش، الحاصل على جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦١م في شهر اغسطس من كل عام

ويرتبط اسم ترافنك بقوة بوجود الأنهار، حيث يتدفق نهر «لاشفا» عبر المدينة من الغرب إلى الشرق، مما يجعل ترافنك تقع على وادي نهر «لاشفا»، ذلك الوادي الذي يربط وادي نهر «بوسنة» في الغرب بوادي نهر «فرباس» في الشرق.

وحيثما يمم وجهك ستجد الأنهار، نسير على ضفاف نهر أونا الرائع، الرابط بين البوسنة وكرواتيا كخط حدودي يمتد ٢١٢ كيلومترا، أطلق عليه الرومان هذا الاسم أونو الذي يعني الفريد أو الوحيد وذلك لجمال طبيعته المميز وهو يعد أجمل أنهار البوسنة والهرسك.

وهناك نهر البوسنة الذي ينبع من منطقة فريلو بوسنة في بلدة إيليجا على بعد ٥ كيلومترات غرب مدينة سراييفو عند سفح جبل إيغمان وعلى ارتفاع ٥٠٠ متر عن سطح البحر، ويَعْبر نهر البوسنة الجزء الأوسط من دولة البوسنة والهرسك ويمر من المدن

ويصب في آخر المطاف في نهر سافا.
وتشتهر البوسنة بشلالاتها الكثيرة، وابرزها شلال ياتيسا، الواقع عند نقطة التقاء نهر بليفا ونهر فرباس. كان ارتفاع الشلال يقدر بـ ٣٠ مترا، ولكن خلال حرب البوسنة، غمرت المياه المنطقة وتقلص طول الشلال إلى ٢٠ مترا.
وعلى نهر أونا يقع شلالان كبيران الأول يقع على بعد ٥٠ كم من بيهاتش في منطقة تسمى مارتن برود، والثاني هو شلال شترباتشكي بوك الذي يقع بالقرب من الحدود البوسنية الكرواتية، ويعد مجموعة من الشلالات المجتمعة التي يبلغ ارتفاعها ٢٤ مترا، بما يجعله أكثر من أكثر المناطق جلبا للسياح، وتعد المنطقة محمية طبيعية، وهي أول محمية طبيعية في الفدرالية البوسنية، حيث أصبحت محمية طبيعية منذ عام ٢٠٠٨م.
ويمكن للسائح أن يمضي جولته في بلد مغمور بنعمة الماء، حيث يزور الطواحين المائية الواقعة بالقرب من مدينة يايتسا بين بحيرة بليفتسكا الكبيرة والصغيرة، يطلق على الطواحين إسم مليتشيتشي، ويبلغ عددها ١٩ طاحونة، وتم بناؤها قبل ١٠٠ عام، وكانت تستخدم لطحن القمح.
ومن الأماكن السياحية الأخرى متحف أفنوى الذي بني عام ١٩٥٣م في ذكرى اجتماع تيتو مع الحزب الاشتراكي اليوغسلافي خلال الحرب العالمية الثانية واتفاقهم على تأسيس الدولة اليوغسلافية، دمر المتحف خلال الحرب البوسنية وتم إعادة بنائه عام ٢٠٠٧م، والقلعة القديمة الذي بناها الملك تفرتكو الثاني في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، وهو أحد ملوك البوسنة، تعتبر القلعة تراث ملكيا بوسنيا، وتمثل نمط الحياة الملكية في البوسنة، إلى جانب مكاتب الملك والحاشية وغرف نومه وإسطبلات خيله وأماكن إقامة زوجاته وقاعة الأفراد هناك قاعة اجتماعات وسجن وأحواض سباحة وحدائق على الهضبة المطلة على المدينة.
ومن الجوامع الشهيرة جامع شارنا الملون، يقع في «مركز المدينة السفلي» بترافنك، ويطلق عليه أيضا «الجامع السليماني»، وبني في النصف الثاني من القرن السادس عشر، احترق المسجد عام ١٨١٥م، ثم قام الوزير البوسني سليمان باشا سكوبلياك بإعادة بنائه في نفس المكان القديم.

وداعا سراييفو

تجولنا في بلاد خرجت من معطف الحروب تداوي حرائقها وجراحها، متمسكة بجوهر دينها، واقتربنا من الشعب البوسني الذي تدفعه حداثة تعرفه على مفردة السياحة لتوخي محاذير كثيرة في التعامل مع السائحين خصوصا المسلمين، فالمساجد على كثرتها مغلقة إلا للاذان، وتغلق مباشرة بعد الصلاة عدا المساجد الداخلة ضمن المنظومة السياحية كمساجد المدن القديمة بموستار وسراييفوفإنها مفتوحة للجميع.
كانت الساعة السادسة بعد العصر حينما أقلعت الطائرة لتكمل مشهدا لم نستطع التقاطه خلال الأيام العشرة التي قضيناها في حقيقة أشبه بالحلم، عندما توارت عن أرضها وواحاتها كانت الشمس تأذن بالمغيب أيضا، ثلاثة ألوان ملتصقة ببعضها الأحمر والأصفر والأزرق والأخضر. رباعية اكتملت من خلالها لوحة سراييفو الرائعة، الجبال الملتحفة بالخضرة والوهاد العميقة التي تستوعبها رؤوس الجبال وسفوحها التي تستغرق الأنهار وقتها لتصب بغزارتها في تجمعات وبحيرات على مد البصر.
وداعا سراييفو، بلاد الله الجميلة، التي تجري من تحتها الأنهار، وتنهمر من جبالها الشلالات، وفي عيونها جمال.. لا يقاوم سحره.